عبد الله الطوخى(١)

عندما كنت طفلا ، أرادت أمى أن تصنع منى رجلا، فقالت لى يوم حصاد القمح روح يا عبد الله أحرس الغلة، وأمسك عصاية كبيرة علشان تهش بيها العصافير. ووضعت ديل الجلابية فى سنانى وجريت للجرن. كانت العصافير بالمئات تأكل فى مرح، تركتها وجلست أتأملها. ولما حضرت أمى امسكت بالعصا وضربتنى صارخة أنا نفسى تبقى رجل يا ولد»

عبد الله الطوخى فى حواره معى

إلتقيته لأول مرة فى سجن مصر. فى أول ليلة جلسنا كل منا يحكى ذكرياته عن المنصورة. وبعدها اصبحنا أكثر من اصدقاء. معه تذكرت أيام الطفولة. المنصورة الابتدائية والاستاذ البادى الطوخى (عم عبد الله) وكان سكرتير المدرسة، وتذكرت كيف كنا نمشى جماعة على كورنيش النيل حتى حديقة شجرة الدر وعلى اطرافها المبنى الارستقراطى للنادى الملكى حيث كبراء المدينة ثم نهاية شريط الاسفلت، وعدة خطوات لنجد انفسنا فى ظلال شجرة الجميز العجوز التى حكى لى عنها عبد الله عشرات الحكايات. نتسلق الجميزة كالقرود نأكل الجميز حتى يضبطنا اطفال ميت بدر خميس ويطاردوننا. نغضب منهم ونترصدهم أيام الاعياد حيث تكون متعة العيد فى التوجه إلى «سوق العيد» فى المنصورة ينفق كل منهم عيديته فى شراء خرزانة اطول منه ورغيف سوقى ملئ بالطعمية ثم قطعة من الحلاوة الطحينية، لكننا نطاردهم كما يطاردوننا نخطف الطواقى وهم لا يتجاسرون على استردادها.

الأسرة مستورة، لكنها تبدو كالاغنياء فى بلدة شديدة الفقر. مساحة قليلة من الافدنة تمكن الاسرة من تخريج عدد من الافندية. وعبد الله يقطع الطريق سيرا على الاقدام من اقصى المدينة إلى طرفها الآخر حيث المنصورة الابتدائية الأميرية. ثم إلى المنصورة

الثانوية المجاورة بشجرة الدر ويحصل على التوجيهية.. ثم تتسع ابتسامة عبد الله لنضيّ الزنزانة وهو يحكى «انطلقت إلى الحرية، دخلت كلية الحقوق زملائى فى الكلية دخلوها لأنها كلية وزراء المستقبل، أما أنا فدخلتها لأنها كلية الحرية. فقد اقنعت نفسى أننى لست فى عجلة من أمرى، ولا داعى لتضييع الوقت فى مدرجات المحاضرات أو فى المذاكرة، وقررت أن اكرس كل وقتى للتعرف على معشوقتى.. القاهرة وبحثا عن حريتى فى التسكع حيث أشاء. ويمضى عبد الله فى حواره معى قائلا «ولكن كيف لك أن تستمتع بالحرية فى وطن غير حر؟ «أتيت القاهرة فى العام الدراسى ٤٥-١٩٤٦ وما هى إلا أشهر حتى تتفجر هذه المعشوقة بثورة طاغية ضد الاستعمار والرجعية والقصر الملكى، شاركت فى المظاهرات وفى معركة كوبرى عباس الشهيرة كنت هناك، الكوبرى فتح والهجانة بالكرابيج والعساكر بالشوم والرصاص يدوى . البعض القى بنفسه فى النيل والبعض مزقته الكرابيج أو اصابه الرصاص أنا اتسحبت من بين السيقان المتصارعة مستفيدا من جسدى النحيل وخرجت مسرعا ومصابا بجراح عديدة. ومع المظاهرات كانت المناقشات الساخنة، لكننى كنتى مصمما على التباعد عن السياسة، اريد حريتى الشخصية شوية هتافات فى مظاهرة آه اكثر من كده لأ. لكن بلدياتى أحمد الرفاعى وكان قد سبقنى إلى كلية الحقوق ظل يطاردنى بمناقشات لا تنتهى هو وطالب نوبى وهو زكى مراد قالا انهما شيوعيان ووجها لى دعوة إلى مائدة الشيوعية. قلت لهما بصراحة أنا متعاطف مع الفقراء ولكن تنظيم وسياسة لأ. لكن الماكر الحبيب احمد الرفاعى وقد ادرك اتجاهى إلى القصة والكتابة اطلق على قذيفة لا تقاوم فأعطانى رواية «الأم» لمكسيم جوركى الرواية سحرتنى فى عالم عشت فى ملكوته. صرت أحلم حتى وأنا اتمشى فى شوارع القاهرة بالفتى الثورى «بافل» وأمه وبالسجن، وبرومانسية خالصة تمنيت أن أصبح مثل بافل، وأن اسجن مثله وأعذب مثله، عطر «بافل» غمرنى وأوشكت أن اتقمص شخصيته. وباختصار اصطادنى احمد الرفاعى ودخلت راضيا ومتحمسا إلى قفص التنظيم الشيوعى». وشارك عبد الله بحماس محسوب فى العمل الجماهيرى واسهم فى المظاهرات الصاخبة التى اعقبت فترة سكون فى زمن الأحكام العرفية (٤٨-١٩٥٠) ثم كان الحدث المهم الذى مثل نقطة تحول فى حياته. زواجه من فتحية العسال. وعاشا معا قصة حب جميلة. شاركته فى كل شىء وتغنيا معا بشعر لكمال عبد الحليم:

وأقمنا فى تحد عشنا.. لهب انت ونيران أنا

فتنة أنت لولا ثورة.. جمعنا ما عشقنا بعضنا

إلى هنا والأمن يتعامل معه كفتى متحمس ولكن غير ضار. حتى كانت واقعة تشبه الأفلام الهندية.

وبداية القصة كانت فترة السجن المريرة التى قضاها شهدى عطية فى سجن طرة. وهناك جعل شهدى من السجن مدرسة حقيقية وبدأ فى تجنيد عشرات من السجناء ليصبحوا على يديه شيوعيين، شربوا على يديه من نهر المعرفة النظرية الدافقة والاخلاص الثورى المتفانى، ومن هؤلاء كان فتحى أبو طالب. وهو مسجون فى قضية شهيرة هزت الرأى العام لفترة طويلة حيث شكل مجموعة سرقت البنك الأهلى. وظل فتحى أبو طالب يحاول الهرب المرة إثر الأخرى وينجح فى الهروب عبر أساليب غاية فى الغرابة تحولت فيما بعد إلى أفلام سينمائية عدة. وفتحى قوى الملاحظة فقد لاحظ أن الزيارات التى تأتى لشهدى مصطحبة كالعادة بعض الطعام يكون ملفوفا دوما فى اكياس ورقية مطبوع عليها «عبد الباقى عمر قمصانجى - شارع خيرت- السيدة زينب». حفظ الاسم والعنوان بعد أن تأكد أن الحزب هو الذى يرسل الطعام لشهدى. وهرب فتحى من السجن. تمشى فى شوارع القاهرة، وفى شارع خيرت وجد المحل. دخل بهدوء وطلب اتصالا بالتنظيم راوغه عبد الباقى لكن فتحى نجح فى اقناعه. وأتى رفيق ليتسلم الهارب الجديد. وتقرر أن يختبئ فى منزل المحامى عبد الله الطوخى حتى يمكنه القول أن السجين الهارب أتى إليه طالبا تسلميه للبوليس. وفى بيت عبد الله وفتحية تمتع فتحى بقدر من الحرية سحب كرسيا وجلس فى البلكونة ليطالع المشاهد الصاخبة فى حى السيدة زينب . لكن أحداث الفيلم الهندى لم تكتمل. الجارالمواجه لبيت عبد الله هو شقيق احد السجناء فى طرة وكان يرى فتحى ابو طالب اثناء الزيارة، فزار اخاه وابلغه. الأخ السجين ابلغ المأمور قائلا أن الشيوعيين قاموا بتهريب فتحى كى يغتال الرئيس محمد نجيب (كنا فى عام ١٩٥٣ وكانت حدتو قد بدأت صراعها ضد حكومة الجيش) وفجأة دق الباب واقتحمت الشقة مجموعة كبيرة من الضباط والجنود. الضابط سأل عبد الله «فتحى ابو طالب عندك؟» فأجاب نعم. فلا جدوى من الانكار. دخلوا. فتشوا ولم يجدوا فتحى. قال لى فتحى ابو طالب فى حواره معى «فى حالات كهذه تعلمت فور دخولى أى بيت أن اكتشف طريقا للهروب. كنت

بالجلابية وحافى القدمين سمعت خبط الباب اندفعت إلى البلكونة وتسلقت المواسير من الدور الثالث إلى الشارع واندفعت نحو المكوجى المجاور قائلا فى هلع مفتعل وابور الجاز طق فى وش البنت ادينى الشبشب علشان اجرى واطلب الاسعاف. ولبست الشبشب وتمشيت بهدوء». لم يجدوا فتحى ابو طالب لكنهم ادركوا أن عبد الله الطوخى شيوعى خطير. وحفظوها له حتى كانت حملة قبض واسعة طالت أغلب كوادر «حدتو» فى منطقة القاهرة فقبضوا عليه وإلى سجن مصر..وهناك التقينا.